هتـــاف الشيطان

للأستاذ عبد المغنى على حسين

كنا فى حجرة استقبال ، بدار انجليزية ، بإحدى مدائن انجلترا ، والفصل شتاء ، والوقت ليل ؛ فالستائر مسدلة ، ونار الفحم موقدة ، ونحن فى غمرة من الدفء الشهى ، ذلك الموج الخفى ، فى اللجى الأثيرى . وكانت الطبيعة فى تلك الليلة غضبى والريح تهب من جميع الجهات إلى جميع الجهات ، يجن جنونها فتثب على الشجر المنحف العارى تعركه عركا وتكاد تمزقه وتشظيه ، لولا تلويه ، فتختلط زمجراتها بعويل الشجر . كانت الريح فى الفينة بعد الفينة تهوى علينا من المدخنة ، كأنما تبحث عنا جاهدة ، فاذا استعصت عليها الأبواب والنوافذ لم تتحرج أن تأتى البيوت من سقوفها ، فتنقض علينا تنفث فى وجوهنا السناج والدخان . ثم ترتد من المدخنة لتكر على زجاج النوافذ تحصبه برشاش المطر .

كنا فى الحجرة اثنين . أما الثانى فسيدة انجليزية شقراء أرملة فى نحو الخمسين ، تنحنى على النار فتجيل فيها العود ، وتعتدل فتضع ساقاً على ساق ، وتنظر إلى اللظى بعينين رماديتين حالمتين حزينتين . هى (صاحبة البيت) كما كنا نسميها . كنا نسمر سمراً متراخياً أكثره سكوت ، إذ كان الحس موزعاً ما بين تحذير الدفء وتخويف الطبيعة . إلى أن حدث أمر أيقظ منا الحس ، وأهاج النفس ، فاذا هياج الطبيعة من هياج النفس كخطر النسيم من لفح الجحيم .

ذلك أنه كان على إحدى حوائط الحجرة لوحة فيها رسم فتى وفتاة كلاهما فى نحو العشرين أو دونها ، أما الفتى فكان صغير الجرم . فى وجهه إشراق الذكاء . وفى هيئته جدوحيوية ؛ يبسم للدنيا — الدنيا المخاتلة ! وأما الفتاة فكانت ناهداً هيفاء بسمتها الحلوة خليقة أن تمحو مرارة الدهر ، وتطرد الحزن من أقطار الوجود . شعرها مكور على رأسها على النمط الفكتورى ؛ ثوبها طويل محكم يبدى من سحرها النسوى ما لا أظن العرى يبديه ؛ وقفتها فيها ميل من الدل والطراوة ، وعيناها رماديتان حالمتان كان فى الفتاة من سيدة الدار شبه ، ولكنه ضئيل جداً . لاحت منى التفاتة إلى تلك الصورة ، فقلت أسائل السيدة عنها وأجعلها موضوع حديث . فما إن فعلت حتى رأيتها وجمت وجوما انقبض له صدرى . قالت : « ألا تعرف من تكون الفتاة ؟ » قلت « من ؟ » قالت « أنا » . فلم أقل شيئاً ، ولكنى عجبت من فعل السنين ، لئن كانت تلك هى هذه فان الزمن لم يترك منها إلا بقدر ماترك فى جسم أبى الهول من شكل الأسد . لابد وأن تكون أهوال ألف عام قد حشدت فى عمر هذه السيدة حتى صارت مما كانت إلى ما هى الآن .

قلت فمن الفتى الوسيم ؟ قالت « زوجي » واغرورقت عيناها الحالمتان ، ومن الغريب أن الدموع لم توقظهما من أحلامهما .

حسبت أنى آلمتها بذكرى هناء ذاهب . وحبيب غير ايب ، فقلت متعثراً متعذراً : « أخشى أن أكون أدميت جرحاً عله كان اندمل . فقالت « لا إخال مثل جرحى يندمل . وتلا ذلك سكوت وجدته خيراً من الكلام ، ووددت لو أن كلاماً لم يكن

ثم رأيت السيدة تنظر إلى نظرة فيها حنان الأم ، واذا بها تقول : « أوصيك يا بنى ألا تذوق الخمر أبداً ، فان كنت شربتها فلا تقربها بعد اليوم » . فدهشت لهذا الكلام المفاجيء وعجبت له . قلت « ماهذا الذى تقولين ؟ » قالت « لقد كانت حياتى مأساة يؤلمنى أن اقصها فأحياها من جديد ، ولكنها عبرة نافعة لمن هو فى سنك ، فسأقصها عليك .

كان زوجى فى أول عهدنا فتى جم المحاسن ، شديد الحب لى وللأطفال ، يهوى العش الذى بنينا ، وكان فى عمله مثال النشاط ، جم الكفايات . وشاء الجد العاثر أن ينقل إلى وظيفة (بالجمارك) ، فكانت مهمته تقدير المكوس على الخمر التى ترد من الخارج ، ومرت الأيام فاذا بى أشم ريح الخمر من فم زوجى ، فأبديت له مخاوفى ، فطمأننى قائلا انه يسترشد فى عمله أحياناً بتذوق عينات الخمر ، وانه انما يفعل ذلك بحذر وما يتناوله لا يذكر . ومرت الأيام فاذا به يعود إلى يترنح من الشراب ثم لم يعد المحب العطوف البسام ، بل صار غضوبا اذا كلمته رفع صوته بالجواب الخشن . ثم ازداد فكان لا يفرغ هراؤه ما دمت بمرأى منه . ثم استغلظ فصار يضربنى ويضرب

الاطفال . كل ذلك وأنا حافظة عهده ، أكتم ما أنافيه عن الناس ثم حدث ما لم يكن منه بد ، ففصل من عمله لقلة كفايته وسوء خلقه ، واستعجف عيشنا ، فأكلنا ما ادخرنا فى العهود السمينة ويعلم الله أننا ما كنا نا كل بمعشار ما كان ينفق فى الشراب . ثم ساءت صحته ، وألح عليه السعال ، فكان يسعل الليل بطوله وأنا معه يقظى حتى الصباح . وذات صباح انتبهت من غفوة فلم أجده فى فراشه ، فحسبت أنه بدورة المياه ، ثم شممت رائحة غاز الاستصباح ، فخفت أن يكون صنبوره بالمطبخ بات مفتوحا فذهبت إلى هناك ، فوجدت باب المطبخ مغلقاً ، فعالجته حتى انفتح ، وتراجعت إلى الوراء خشية الغاز السام ، ثم نظرت أمامى فرأيت . . . ويالهول مارأيت . . . ، وغطت وجهها بكلتا راحتيها وزلزل صدرها بنهنهة خفت أن تحطمه . قالت : « رأيته ممدداً فى أرض المطبخ وقد استنشق من الغاز القاتل حتى قضى الأمر » .

ثم كفكفت عبراتها ، وهدأ صدرها ، وجلسنا واجمين صامتين ، كأنما الميت ممدد أمامنا ونحن لجلال الموت فى خشوع . أردت أن أقول شيئاً أنفس به عنها فلم أجد ما أقول ، وماذا يقال فى رجل قتل عقله بالشراب ، وقتل نفسه بالغاز ، عمد إلى أنفس ما أعطاه الله ، وإلى أقدس ما أعطاه الله فدمرهما ، ومرغ معه فى رغام التعاسة سيدة فاضله وأطفالا بيض الصحائف .

وحان وقت انصراف السيدة ، فجلست وحدى ، أنظر إلى نار الفحم ، وإنها لأبرد من نار الصدور ، وذهب بى الخيال مذاهب عجيبة ، حتى لقد خلت أنى أرى الشيطان نحيف الوجه مستطيله محروق الجلد طويل الأصابع أحمر العينين ، فى مجلس من أعوانه ، فى جوف بركان خامد ، أول ظهور الانسان على الأرض ، فرض الشيطان بأنيابه المعوجة وقال : « ماذا ترون فى الدمية التى صنع الله ؟ » مشيراً بإبهامه إلى أعلى حيث سطح الأرض . قال أحد الاعوان : « إن فى رأس تلك الدمية » جوهرة تغشى بصرى ، لو اعتنى بها ذلك المخلوق ، وتبع ضياءها ببصره ، كاد أن يرى الله جهرة ! » . فازداد قرض الشيطان بأنيابه وصاح : « أريد جديداً أيها الأبله » فسكت الجميع زمناً ثم عاد الذى تكلم فقال : « والله ما أحسب ذلك المخلوق إلا مفلتاً من أيدينا بجوهرته تلك ، فهى خليقة أن تسمو به إلى حيث النور ، ولا يبقى فى الظلام خائباً منبوذاً إلا نحن » . فوثب عليه الشيطان وثبة فر أمامها فأخطأته . ثم عاد الشيطان إلى مقعده والشرر يتطاير من عينيه ، واذا بجنى يهبط عليهم من فوهة البركان وهو يصيح : « أحطت بما لم تحيطوا به ، وجئتكم بنبأ عظيم » فصاح به الشيطان : « والله لقد كنت أنتظرك أيها الملعون لأقطع أوصالك بعد هذا الغياب الطويل . قل فلعل عندك ما يشفع لك » فشرع الجنى يقول :

« بصرت بقبيل من تلك المخلوقات البغيضة يعيشون فى كهوف هذه الجبال ، فتخيرت واحداً منهم قوى الجسم مغروراً ، فصرت أزين له الفتك بأقرانه ، وفى ذات يوم رأيت امرأته تدق الحب بالحجر لتطحنه ، ثم وضعت الطحن فى حفرة بالصخر وذهبت لبعض شأنها ، فزينت لأولادها العبث ، فحملوا الماء وكفأوه على الطحن ، ثم أنسيت المرأة طحنها يومين ليفسد ، فتصاعد منه ريح خانق . وفى اليوم الثالث حضر الرجل من الصيد ظمئا يلهث ، ونادى على المرأة لتسقيه ولم تكن المرأة بالكهف ، فثار ثائره ، وبحث عن ماء فلم يجد فانتهزت الفرصة وأرشدته إلى حفرة الماء والطحن ليشرب مما بها فيتسمم فيموت ، فلما بلغ الحفرة نظر فيها وعاف رائحتها فزينت له الشرب منها ، وكان ظمؤه بالغا ، فشرب قليلا وسكت ثم عاد يشرب حتى امتلأ ، وأنا أكاد أطير من الفرح ، ثم رأيته يقوم مترنحاً يضحك ملء شدقيه ، فعجبت ، واذا به يسير بين الكهوف يجرى وراء النساء كالمجنون فيهرب منه مذعورات ، ثم لقى امرأته فهجم عليها كالوحش وقتلها شر قتلة . ثم أخذ يقتل كل من صادفه من الرجال ويعتدى على النساء . ذلك الذى حسبته سيموت قد ازداد قوة وجرأة ، وأخيراً ارتمى فنام ، ثم صحا بعد ساعات فرجع اليه صوابه كما كان ، فعلمت أن ذلك الشراب يفقد الرجل عقله إلى حين .

عاد الرجل الى كهفه ، فلما رأى الخابية مال عليها يكرع وأعاد سيرة الأمس ، وتحدث أهل القبيل بهذا الأمر العجيب فجاء الرجال وكرعوا من الخابية ، وجنوا مثل صاحبهم ، وقد تركتهم ولا عمل لهم إلا صنع ذلك الشراب والعب منه ، وتهتيك النساء ، وتقتيل الرجال ولا أحسب قبيلهم بعد قليل